

25 أغسطس 1992

تراث مصطفى كامل بقلم: د. رءوف عباس

أتحنفا مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر بإصدار الكتاب الثالث والأخير الذي يضم مقالات الزعيم الخالد مصطفى كامل ، وبذلك اكتملت سلسلة (أوراق مصطفى كامل) التي تقع في خمسة مجلدات ضمت الخطب ، والمراسلات والمقالات (في ثلاثة مجلدات) قام بتحقيق المجلد الخاص بالمراسلات الأستاذ الدكتور شوقي الجمل ، أما بقية المجلدات فقد أشرف عليها وقام بتحقيقها الصديق الأستاذ الدكتور يواقيم زرق مرقص مدير عام المركز ، يعاونه فريق من الباحثين المتميزين ضم الاستاذة أمال الفيومي ، واستيره غالى ، وخلف الميرى ، وإيزيس راغب ، ونجوى احمد ، عملوا جميعا طيلة سنوات بصبر ودقة والتزام لانجاز هذا العمل العلمى والوطنى الكبير.

والمجلدات الثلاث التى ضمت المقالات التى كتبها مصطفى كامل فى اللواء وغيرها من الصحف العربية والفرنسية والمقابلات التى جرت بينه وبين بعض المراسلين الأجانب ، خير شاهد على ما بذله الدكتور يواقيم زرق وفريق البحث من جهد كبير ، ولعلى لا أبالغ فى القول بأن هذه المجلدات ستظل المصدر الموثوق به الوحيد لهذا التراث الخالد ، فقد تمزقت الصحف التى نقلوا عنها ، بل صارت صفحاتها رمادا بفضل إهمال هيئة الكتاب فى العقود الاخيرة للدوريات ، وما أصابها من تلف نتيجة سوء التخزين ، والنقل العشوائى من مخازن الدار بالقلعة إلى مقرها ببولاق فضاع ما ضاع ، وتلف ما تلف ، وأهمل ما تبقى ليلحق بركب الضياع ، فلا ترميم ولا معالجة للدوريات وفق الأصول العلمية أو حتى البدائية. كل ما فى الأمر ، انتظار المجلد حتى يتلف ثم يحجب عن الباحثين أو يدخل فى نسبة التلف التى تسمح بها اللوائح. ولعل فصل دار الكتب عن متاهة هيئة الكتاب ، واختيار عالم جليل كالأستاذ الدكتور محمود فهمى حجازى وخبير عظيم كالأستاذ الدكتور ايمن فؤاد لقيادة العمل فى هيئة دار الكتب والوثائق القومية ، يفتح صفحة جديدة من العمل الجاد لانقاذ تراثنا القومى من الضياع ضحية الإهمال.

والمجلد الجديد الذى صدر من (أوراق مصطفى كامل) (الكتاب الثالث من المقالات) يضم المقالات التى كتبها الزعيم الخالد فيما بين عامى 1904 و1907 فهى من ناحية تمثل آخر ما كتبه مصطفى كامل ، ومن ناحية اخرى تمثل مرحلة متميزة فى تاريخ العمل الوطنى. فقد كان لإبرام الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا عام 1904 أثره المحبط للحركة الوطنية فى مصر إذ كانت جهود مصطفى كامل تتجه إلى محاولة الإستفادة من التنافس بين المصالح الفرنسية والبريطانية لكسب تأييد فرنسا للحركة الوطنية المصرية ، وإلزام بريطانيا بتنفيذ وعودها المتكررة بالجلاء عن مصر .. ومن الغريب أن مصطفى كامل تجاهل تماما ما كانت تفعله فرنسا بالخبراء منذ احتلالها عام 1830 وظل يعلق الأمل على فرنسا (بلد الحريات) ، حتى إذا تم توقيع الإتفاق الودى ، وعقدت الدولتان صفقة بموجيها كفت فرنسا يدها عن التدخل فى مصر مقابل تسليم بريطانيا بمصالح فرنسا بالمغرب ، اصيب مصطفى كامل ومن سار على دربه من الوطنيين المصريين بإحباط شديد فى بداية الأمر ، ما لبث أن تحول إلى سياسة جديدة هدفها الإعتماد على النضال الشعبى الوطنى لمقاومة الإحتلال.

وتعكس المقالات المنشورة بهذا المجلد تطور هذا الاتجاه عند مصطفى كامل ، الذى راح يستحث الهمم على النضال ضد المستعمر ضاربا المثل باليابان التى استطاعت أن تهزم روسيا (1904 – 1905) مطالبا باتباع خطى اليابان بتحقيق وحدة الكلمة والجهد ، والعمل على الرقى بالبلاد . ولكنه اختار لقيادة هذه النهضة شخصية لا تصلح لمواجهة تحديات المرحلة ، إذ اختار السلطان عبدالحميد الثانى ليلعب الدور الذى لعبه امبراطور اليابان ، فيجمع (الأمة الإسلامية) على كلمة سواء ويبعث نهضتها ، ويدفع عنها غائلة الأعداء ..

لقد رأى مصطفى كامل أن السبيل الأمثل للخلاص من الوجود الأجنبى هو تقوية الدولة العثمانية ، دولة الخلافة الإسلامية وعد الحركات المناوئة لاستبداد عبدالحميد الثانى خيانة للأمة الإسلامية وموالة للأجنبى .. وظل يدافع عن سياسات الدولة العثمانية ليقينه أن بقاء هذه الدولة تمثل طوق النجاة لمصر من الإحتلال الأجنبى ، فمصر كانت لاتزال – نظريا – خاضعة للسيادة العثمانية ، وخط مصطفى كامل القائم على تأكيد هذه السيادة كان يدفعه إلى الدفاع عن الدولة ، وعن تآكل أملاكها فى البلقان ، وفى شرق البحر المتوسط ، وضد أطماع روسيا فى أملاك الدولة . وقاده هذا الموقف إلى إظهار روح الود نحو ألمانيا التى صادقت السلطان إلى حد التغاضى عن دالات التدخل الألمانى فى المغرب ، وتعليق الأمل على اليوم الذى تهتم فيه ألمانيا بشرق البحر المتوسط وبموقع مصر منه ، فتساعد السلطان على تدعيم سيادته على مصر وإنهاء الإحتلال البريطانى ..

غير أن ذلك لا يعنى أن مصطفى كامل كان يريد عودة مصر إلى وضع الولاية التابعة للدولة ، فيرد على اتهام جريدة التريبيون الإنجليزية له بتسليم مصر للدولة العثمانية بقوله :

(إن أولئك الذين يظنون أننا نريد أن نعطي مصر للدولة العلية ونهدم بأيدينا حدودنا التي اعترفت لنا بها وضمنتها أوروبا، هم إما جهلاء أو متعمدون قلب الحقائق ومسحها .. فإني قلت ألف مرة أو أكثر أن ما نرومه هو رد مصر للمصريين ، وأننا أهل لحكم أنفسنا بأنفسنا ، وأنه لمن المضحك أن يتصور إنسان أننا نروم إبدال نير بنير آخر ..).

فما كان يريده مصطفى كامل هو عودة مصر إلى وضعها السابق للإحتلال كولاية عثمانية تتمتع باستقلال ذاتي كامل ، ضمنته الفرمانات والمواثيق الدولية التي صدرت لمحمد علي والخديو اسماعيل ولكن هذا التركيز على تأييد الدولة العثمانية ودعوة (الجامعة الإسلامية) جلب على مصطفى كامل والحركة الوطنية المصرية تهمة التعصب الديني ، ووجد مصطفى كامل نفسه مضطرا إلى إنكار هذه التهمة في أكثر من مقال ، مؤكدا على أن المصريين جميعا يؤيدون دعوة الجامعة الإسلامية مسلمين وأقباط ليقينهم أن تأييدها من مصلحة بلادهم ..

وتحفل المقالات بالأحداث الحاسمة التي شهدتها مصر عام 1906 وفي طليعتها حادث طابا والنزاع على حدود مصر الشرقية مع الدولة العثمانية ، وهو النزاع الذي أيد فيه مصطفى كامل موقف الدولة العثمانية ، على حين كان الإنجليز وبعض الأعيان المصريين يؤيدون حق مصر في طابا . كذلك شهدت تلك السنة حادث دنشواي الذي أحسن مصطفى كامل استغلاله على الصعيدين الداخلي والخارجي لفضح السياسة البريطانية في مصر ، والهجوم على كرومر في الصحافة المحلية والعالمية حتى انتهى الأمر باستقالة كرومر وخروجه من مصر ..

وكان مصطفى كامل حريصا طوال تلك السنوات التي مثلت المرحلة الأخيرة من كفاحه الوطني ، والتي ختمت بمرضه ووفاته ، كان حريصا على كشف الانتهازيين من الساسة المصريين ، وخاصة الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ، الذي ظل مخلصا للنضال ضد المحتلين حتى عام 1904 ، فتحول إلى موقف المهادنة واللين ، وانتقاد مصطفى كامل وأتباعه ، واتهامهم بالتطرف. وكان قلم مصطفى كامل سيفاً مسلطاً على أولئك الإنتهازيين كرياض باشا وغيره.

هذه نظرة سريعة على هذا المجلد الهام من تراث مصطفى كامل الذي يكتمل به نشر ذلك التراث الوطني الجليل . ومن حقنا أن نتساءل : ماذا بعد؟ فهل يتابع مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر هذا العمل العلمي الهام فيسعى لنشر تراث زعماء آخرين كما فعل مع محمد فريد ومصطفى كامل وسعد زغلول؟ هل من أمل في أن يضم المركز في خطته نشر أوراق جمال عبدالناصر وزملائه من قادة ثورة يوليو ، أم أن علينا أن ننتظر جيلا جديدا يدرك قيمة هذا التراث كما فعل هذا الجيل ، فينفذ الغبار عن تراث ثورة يوليو المجيدة ؟ أخشى ما أخشاه ألا يجد الجيل القادم شيئا من هذا التراث عندئذ ، وما أحوجنا إلى أن ننقذ هذا التراث من الضياع.